كنوز الأجداد[1]

— ٧ —

بديع الزمان الهمذاني

(٣٨٠)

ابو الفضل احمد بن الحسين

نسب الى همذان وسكن غزنة زمناً وتخرج بأبي الحسين احمد بن فارس وأخذ عن غيره وخص بحافظة عجيبة « كان ينشد الشعر لم يسمعه قط وهو أكثر من خمسين بيتاً الا مرة واحدة فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفاً وينظر في الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهزها عن ظهر قلبه هزاً ويسردها سرداً . وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها وكان يقترح عليه عمل قصيدة وانشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة . وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتديء بآخره ثم هلم جرّاً الى أوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه ويوشح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من انشائه فيقرأ من النظم والنثر ويروي من النثر والنظم ويعطي القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله اسرع من الطرف ، على ريق لم يبلعه ونفس لا يقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة ، وفيض البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليد للفم ، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع » .

---

(١) نشرنا في المجلد الثاني والعشرين تسع عشرة ترجمة من كنوز الأجداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال فيه مترجموه انه كان «متعصباً لأهل الحديث والسنة ما أخرجت همذان بعده مثله» وأوصى «أن يتولى الصلاة عليه أهل الحديث وأهل السنة» وهو جماعي يصرح بمذهبه «وينعى على من ينالون من الشيخين ويقول ولا كل سيرة عدل العمرين، ومما قاز في انتشار الرفض: وهذه الكوفة مما اختط امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما ظهر الرفض بها دفعة ولا وقع الالحاد فيها وقعة، انما كان أوله النياحة على الحسين بن علي رضي الله عنهما وذلك ما لم ينكره الأنام، ثم تناولوا معاوية فأنكر قوم وتساهل آخرون، فتدحرجوا الى عثمان فنفرت الطباع، ونبت الاسماع، وكان القراع والوقاع، حتى مضى ذلك القرن وخلف من بعدهم خلف لم يحفظوا حدود هذا الأمر فارتقى الشتم الى يفاع وتناول الشيخين رضي الله عنهما».

كان الهمذاني عربياً مجاهراً بعربيته في أرض فارسية كما كان صريحاً في نحلته في بلاد فيها جماع الأهواء. كتب الى الشيخ الرئيس ابي عامر «نحن أطال الله بقاء الشيخ اذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود، ولم ننكر ان تكون أمة أحسنَ من العرب ملابس، وأنعم منها مطاعم، وأكثر ذخائر، وأبسط ممالك، وأعمر مساكن، ولكنا نقول: العرب اروى واوفر، وارقى واوقر، وانكى وانكر، وأعلى وأعلم، واحلى وأحلم، واقوى واقوم، وابلى وابلغ، وأشجى واشجع، وأسمى واسمح، واعطى واعطف، والطى والطف، واحصى واحصف، وافقى وآنق، ولا ينكر ذلك الا وقح وَتِح، ولا يجحده الا نَغِل نغِر. وانما قدم الله تعالى ملك العجم ليحتج عليها وانما أخر ملك العرب ليحتج بها وما ملكت العجم حتى تواصلت، وما ملكت العرب الا حين تصاولت، وما تواصلت العجم الا يأساً من نفوسها، ولا تصاولت العرب الا لما في رؤوسها ...»

بَرَزَ الهمذاني في الشعر والنثر. ونثره ذو طابع خاص يهتز اهتزاز الغصن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوريف ، وتسمع له حميل الحفيف والأفيف ، وحفيفه منبعث من نفسه ورفيفه صادر عن قوى في حسه ، وقلَّ في الكتاب من أحدث له طريقة كطريقته ، وأملى بها صورته وجسَّم صوته ونَعرَته ، وان كتب لك ان تتدبره تدرك في يسر وسهولة ما وصلت اليه الأخلاق في عصره وما حدث من متاعب ومعضلات في البقاع النائية من أرض الشرق وكأن ما كتب في رسائله لوحة نقشت عليها ما كان في زمنه من التزاويق والتهاويل ومن التعمية والتخليط ، فهو يعطيك ما يهمك من الأخبار مما قد تضن به عليك كتب التاريخ والسير . ويرضيك لأنه كان بعيداً عن التقية لا يهاب شيئاً عند ارادته بث شعوره وأفكاره ، صانع بعض الأمراء ، لاعتقاده ان من يخاشنهم يُضرب ويُنكب ، وبالتقرب منهم يجمع من نوالهم وجوائزهم ما يعتقد به العقد وتسجل له به صكاك الضياع ، وهكذا كانت طريقة الناس في عصره وشعراؤه وكتابه هم ألسنته الناطقة الصداحة .

يتجلى روح الشباب في رسائل ابي الفضل تجلي أغراض اهل زمنه وأغراضه هو ، وللشباب وثبات لا يساويهم فيها الشيوخ ولو تكلفوا لها وحشدوا ، ولو اصطنع الشاب وقار الشيوخ والشيخ حماسة الفتيان لظهر للناس أمرهما وانكشفت للمدقق خبيئة نفسها . وفي كتابة الشباب مطامع وآمال وفي كتابة الشيوخ حكمة وأناة . وفي الأولى ابتسامات وتفاؤل وفي الثانية انقباض وتشاؤم .

وفي المناظرة التي جرت بين الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم وما ظهر من آثار بديهة ابي الفضل ودهشة ابي بكر وسرعة خاطر الأول ورزانة الثاني ما أطمع فيه خصمه فنبذه وجعله وراءه في قرض القريض وتحبير الخطب دليل على ان سكرة الشباب احياناً أفضل من وقار الشيوخ . هذا والخوارزمي علم من أعلام الأدب عظيم في عصره ولكنه شيخ برد دمه أو كاد وصاحبه شاب كله حيوية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومع كثرة ماوقع بين المتناظرين ترفع الهمذاني عن الشماتة بخصمه وقت مرضه ووقت موته فقد هنأوه بمرض الخوارزمي فأجاب جواباً دلّ على عظم نفسه وقال : « فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها على نفسه ، ولا يعدمها في جنسه . والشامت ان افلت فليس يفوت ، وان لم يمت فسيموت ، وما أقبح الشماتة بمن أمن الاماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الخيار ، وظمآن شربه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم يُسرُّ العاقل بسلاح قاتله ، وهذا الفاضل شفاه الله ، وان ظاهر بالعداوة قليلاً ، فقد باطناه وداً جميلاً ، والحرُّ عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالي الا بصورتها من التوجع لعلته ، والتحزن لمرضته ، ووقاه الله المكروه ووقاني سماع السوء فيه بحوله ولطفه » ومعنى هذا ان الهمذاني وان ألهب للخوارزمي نار هجاء ونال منه وهو مغتاظ منه فأسقطه في بديهته وشعره ونثره لم تجد الشماتة بمرضه الى قلمه سبيلاً وأبى ان يكون من النذالة وسفساف الخلق ما قد يكون على مثله بعض المتباغضين المتلاعنين والمتنافسين المختصمين .

أملى الهمذاني اربعمائة مقامة ما عُرف الا بعضها ، فهو واضع طريقة المقامات وان قالوا انه نقلها من غيره ، وغيره لم تؤثر له ولا مقامة . ومع ان مقاماته نسق واحد في صنعتها يتحدث بها عن عيسى بن هشام وينسبها الى بطلها ابي الفتح الاسكندري فان مقاماته على طرافتها كانت دون رسائله في الابانة عن حالة العصر

وهذا الضرب من الأدب لم يُفلح كثيراً عند العرب وهو نوع من القصة المخنوقة تبتدئ وتنتهي على نسق واحد لا يقصد بها التعليم أكثر مما يقصد بها بهرجة الألفاظ والاستكثار من زخارف البديع والترصيع والتجنيس ولا يقال فيها الا انها ابنة التطبع لا الطبع . ومقاماته ورسائله تشعرك بسعة محفوظة في المنظوم والمنثور ومعظم ما وعت حافظته من متن اللغة وآدابها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونثره متساوق متناسب ، موجز الفقرات بادي القسمات تكاد تحمل كل فقرة منه معنى بذاته كقوله : هذا سوس لا يقع الا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط الا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب الا خزانة الأوقاف ، وكردي لا يغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين العهود والشهود .

ولو ادعى مدع ان الكتابة ماختمت بابن العميد كما قالوا بل بالهمذاني لكان حقاً ومذهباً . الهمذاني لا يستغني شادٍ في الأدب عن الأخذ عنه ومثل ابن العميد كثار غير قلائل ، وبعضهم أكتب منه وأشعر ، أخملهم تخلف الدنيا عنهم وللشهرة أسباب قد تخطيء أعظم مستحق لها .

* * *

بقي أن نلمع الى مكانة بديع الزمان في الجد ومكانته في الهزل ولا أحسن في الدلالة على ذلك من نقل نموذجين جميلين في هذين الموضوعين فانه في المقامة المضيرية كان من وراء الغاية في هزله كما جوّد كل التجويد في رسالته الى وزير محمود بن سبكتكين .

واليك المقامة المضيرية بنصها الرائق : حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعي ابو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه والبلاغة يأمرها فتطيعه وحضرنا ، معه دعوة بعض التجار فقدمت الينا مَضيرة تثني على الحضارة ، وتترحرح في الغضارة ، وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالامامة ، في قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما أخذت من الخُوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام ابو الفتح الاسكندري يلعنها وصاحبها ، ويقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخها ، وظننا به يمزح فاذا الأمر بالضد ، واذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الاخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه ، وتلمظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومضى في إثرها الفؤاد ، ولكنا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها فقال : قصتي معها أطول من مصيبتي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت ، واضاعة الوقت . قلنا : هاتِ . قال : دعاني بعض التجار الى مضيرة وأنا ببغداذ ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، الى ان أجبته اليها رقنا ، فجعل طول الطريق يثني على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها . ويقول : يا مولاي لو رأيتها ، والخرقة في وسطها ، وهي تدور في الدور ، من التنور الى القدور ، ومن القدور الى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبَّر في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا اعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء ان يرزق المساعدة من حليلته ، وان يسعد بظعينته ، ولا سيما اذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي لَحًّا ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها ارومتي ، لكنها أوسع مني خُلقاً ، وأحسن خَلقاً . وصدعني بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته . ثم قال : يا مولاي ترى هذه المحلة هي أشرف محال بغداذ يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وانما المرء بالجار ، وداري في السطة من قلادتها ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدر يا مولاي أنفق على كل دار منها ، قله تخميناً ان لم تعرفه يقيناً ، قلت : الكثير ، فقال يا سبحان الله ما اكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط . وتنفس الصُّعَداء وقال : سبحان من يعلم الاشياء ، وانتهينا الي باب داره ، فقال : هذه داري ، كم تقدر يا مولاي انفقت على هذه الطاقة ، انفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعها وشكلها أرأيت بالله مثلها ، انظر الى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وانظر الى حذق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذه من كم . قل : ومن أين اعلم . هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن . اذا حركت أنَّ ، واذا نقرطنَّ ، من اتخذه ياسيدي ؟ اتخذه ابو اسحق بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محمد البصري ، وهو والله رجل نظيف الاثواب ، بصير بصنعة الابواب ، خفيف اليد في العمل ، لله در ذلك الرجل ، بحياتي لا استعنت الا به على مثله ، وهذه الحلقة التي تراها اشتريتها من سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزّية ، وكم فيها ياسيدي من الشبه ، فيها ستة ارطال وهي تدور بلولب في الباب ، بالله دوّرها ، ثم انقرها وابصُرها ، وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق الا منه ، فليس يبيع الا الاعلاق . ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمرك الله يا دار ، ولا خرّبك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، واقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها ، وتبين مداخلها وخوارجها ، وسلني كيف حصّلتها ، وكم من حيلة احتلتها ، حتى عقدتها . كان لي جار يُكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلّف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر ، ومزقه بين النرد والقمر ، واشفقت ان يسوقه قائد الاضطرار ، الى بيع الدار ، فيبيعها في أثناء الضجر ، او يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها وقد فاتني شراها ، فأتقطع عليها حسرات ، الى يوم الممات ، فعمدت الى أثواب لا تنضُ تجارتها فحملتها اليه ، وعرضتها عليه ، وساومته على ان يشتريها نسية ، والمدبر يحسب النسية عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي ، ثم تغافلت عن اقتضائه ، حتى كادت حاشية حاله ترق ، فأتيته فاقتضيته ، واستمهلني فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته ان يجعل داره رهينة لديّ ، ووثيقة في يديّ ففعل ، ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لي بجَدّ صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد ، وانا بحمد الله محدود ، وفي مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاي اني كنت منذ ليال نائماً في البيت مع من فيه إذ قُرع علينا الباب فقلت : من الطارق المنتاب ، فاذا امرأة معها عقد لآل ، في جلدة ماء ورقة آل ، تعرضه للبيع فأخذته منها إخذة خلس ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله تعالى ودولتك ، وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجارة ، الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك ، اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات وزمن المخاطرات . وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والدهر حبلى ليس يدرى ما يلد . ثم اتفق اني حضرت باب الطاق ، وهذا يعرض في الأسواق ، فوزنت به كذا وكذا ديناراً ، تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر ، ولا يقع مثله الا في الندر ، واذا كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله وله ابن يخلفه الآن في حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر الا عنده ، فبحياتي لا اشتريت الحصر الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لإخوانه ، لا سيما من تحرم بخوانه .

ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة . ياغلام الطست والماء . فقلت الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج ، وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ، انه رومي الأصل عراقي النشء ، تقدم يا غلام واحسر عن رأسك وشمر عن ساقك ، وانضِ عن ذراعك ، وأقترَّ عن اسنانك ، وأقبل وأدبر ، ففعل الغلام ذلك . وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله ابو العباس من النخاس ، ضعِ الطست وهات الابريق ، فوضعه الغلام واخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره فقال : انظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب ، او قطعة من الذهب : شبه الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلني متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة ، يا غلام الابريق ، فقدّمه ، وأخذه التاجر فقلّبه . ثم قال : وانبوبه منه . لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست الا في هذا البيت ، ولا يجمل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا البيت الا مع هذا الضيف ، ارسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام . بالله ترى هذا الماء ما أصفاه أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور ، استقي من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، الشأن في الاناء ، لا يدلك على نظافة اسبابه ، أصدق من نظافة شرابه ، وهذا المنديل سلني عن قصته ، فهو نسيج جرجان ، وعمل أرّجان ، وقع اليّ فاشتريته فاتخذت امرأتي بعضه سراويلاً ، واتخذت بعضه منديلاً ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً ، وأسلمته الى المطرّز حتى صنعه كما تراه وطرزه ، ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصُّندُوق ، وادخرته للظراف ، من الأضياف ، لم تتبذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها ، فلكل علق يوم ، ولكل آلة قوم ، يا غلام الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع فقد طال المصاع ، والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمّر الله بغداذ فما اجود متاعها ، وأظرف صُنّاعها ، تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟ فقال : الآن ، عجّل يا غلام الطعام ، لكن الخوان قوائمه منه . قال ابو الفتح : فجاشت نفسي وقلت : قد بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة من أين اشتُريت اصلاً ، وكيف اكترى لها حَمْلاً ، وفي أي رحى طحن ، واجانة عجن ، وأيّ تنور سجر ، وخباز استأجر ، وبقي الحطب من اين احتطب ، ومتى جلب ، وكيف صفّف ، ومتى جفف ، وحبس حتى يبس ، وبقي الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته ، وبقيت السُّكُرُّجات من اتخذها ، وكيف انتقدها ، ومن استعملها ، ومن عملها ، والخل كيف انتقي عنبه ، او اشتُري رطبه ، وكيف صُهرجت معصرته ، واستخلص لبه ، وكيف قيّر حُبُّه ، وكم يساوي دنه ، وبقي البقل كيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

احتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رُصف ، و كيف تُوُنِّق حتى نظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووُفِّيَ شحمها ، ونصبت قدرها ، وأُججت نارها ، ودقت أبزارها ، حتى أُجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطمُّ ، وأمر لا يتم ، فقمت ، فقال : أين تريد : فقلت حاجة أقضيها . فقال : يا مولاي تريد كنيفًا يزري بربيعي الأمير وخريبي الوزير . قد جصص اعلاه ، وصُهرج أسفله ، وسُطّح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذَّر فلا يعلق ، ويمشي على ارضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير انه من خليطي ساج وعاج ، مزدوجين احسن ازدواج ، يتمنى الضيف ان يأكل فيه ، فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب ، وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح : يا أبا الفتح المضيرة ، وظن الصبيان ان المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه ، فرميت احدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقي رجل الحجر بعمامته ، فغاص في هامته ، فأُخذتُ من النعال بما قَدُم وحَدُث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النحس . فنذرت ان لا آكل مضيرة ما عشت . فهل أنا في ذا يا آل همذان ظالم ؟ قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا قديمًا جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأرذال على الأخيار . اهـ .

* * *

وهذه رسالته التي تدل على مبلغه من الجد كتب بها الى الفضل بن احمد الاسفرائيني وهو اول من استوزر لأبي القاسم محمود بن سبكتكين فاتح السند والهند :

ان الله وهو العلي العظيم المعطي ما شاء ، مَنَّ على الانسان ، بهذا اللسان ، خلق ابن آدم وأودع فكيه مضغة لحم يصرفها في القرون الماضية ، ويُخبر بها عن الأمم الآتية . يخبر بها عما كان بعد ما خُلق وعما يكون قبل ان يخلق ، ينطق بالتواريخ عما وقع من خطب وجرى من حرب ، وكان من يابس ورطب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وينطق بالوحي عما سيكون بعد ، وصدق عن الله بالوعد ، ولم ينطق التاريخ بما كان ، ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خص احداً من عباده ليس النبيين بما خص به الأمير السيد يمين الدولة وأمين الملة . ودون الجاحد ان يجحد أخبار الدولة العباسية ، والمدة المروانية ، والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ، والأيام الأموية ، والامارة العَدَوية ، والخلافة التيمية ، وعهد الرسالة وزمان الفترة . ولولا الاطالة لعَدَدنا الى عاد وثمود بطناً بطناً ، والى نوح وآدم قرناً قرناً ، ثم لم يجد قائل مقالاً ان ملكاً وان علا امره ، وعظم قدره وكبر سلطانه وهبت ريحه طرَق الهند فأسر طاغيتها بسطة مَلِك ثم خلاَّه ، وعرض الأرض قوةَ قلب وصبَّح سجستان وهي المدينة العذراء ، والخطة العوراء ، والطيَّة الغراء ، فأخذ ملكها إخذة عز وعُنف ، ثم خلاه تخلية فضل ولُطف ، ثم لم يلبث ان خاض البحر الى بهاضية والسيل والليل جنودها ، والشوك والشجر سلاحها ، والضِّح والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها ، والجنّ والانس أنصارها ، فقتل رجالها وغنم أموالها وساق اقيالها وكسر أصنامها وهدم اعلامها . كل ذلك في نُفسحة شتوة قبل أن يتطرقها الصيف ، توسطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء . ثم حكمت علماء الأمة ، واتفق قول الأئمة ان سيوف الحق أربعة وسائرها للنار : سيف رسول الله في المشركين ، وسيف ابي بكر في المرتدين ، وسيف عليّ في الباغين ، وسيف القصاص بين المسلمين . وسيوف الأمير وفقه الله في مواقفه لاتخرج عن هذه الاقسام فسيفه بظاهر هراة فيمن عطل الحد ، واتهم بانه ارتد ، وسيفه بظاهر غزنة سد في وجه العقوق ، نوعاً من الكفر والفسوق ، وسيفه بظاهر مرو في من نقض العهد بعد تغليظه ، ونبذ اليمين بعد تأكيده ، وسيفه بظاهر سجستان في من نبه الحرب بعد رقودها ، وخلع الطاعة بعد قبولها ، وسيفه الآن في ديار الهند قُرنت به الفتوح ، واثنت عليه الملائكة والروح ، وذلت به الاصنام ، وعزَّ به الاسلام ، والنبي عليه السلام ، واختص بفضله الامام ، واشترك في خيره الانام ، وأرخت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بذكره الايام ، وأحفيت بشرحه الاقلام . وسنذكر من حديث الهند وبلادها ، وغلظ اكبادها ، وشدة احقادها ، وقوة اعتقادها ، وصدق جلادها ، وكثرة اجنادها نبذاً ليعلم السامع اي غزوة غزاها الأمير السيد ، انها بلاد لو لم تحميها السحاب بدرها ، لأهلكتها الشمس بحرها ، فهي دولة بين الماء والنار ، ونوبة بين الشمس والأمطار ، تقدمها صعاب الجبال ، وتحجبها رحاب القفار ، ويعصمها ملتف الغياض ، وتحفها طواغي الأنهار حتى اذا خرقت هذه الحجب خلص الى عدد الرمل والحصى رجالاً ، وشبه الجبال افيالاً ، وانزاع اغخاص جلاداً ، ومسناف الجمال طعاناً واركان الجبال ثباتاً ثم لا يعرفون غدراً ولا بياتاً ، ولا يخافون موتاً ولا حياة ، ولا يبالون على اي جنبيه وقع الأمر ، وينامون وتحتهم الجمر ، وربما عمد احدهم لغير ضرورة داعية ولا حمية باعثة فاتخذ لرأسه من الطين اكليلاً ، ثم قوّر قحفه فحشاه فتيلا ، ثم اضرم في الفتيل ناراً ولم يتأوه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً ، وتأكله جزءاً فجزءاً . فأما محرق نفسه ومغرقها وآكل لحمه ومفصّل عظمه والرامي بها من شاهق فأكثر من ان يعد ، وأقلهم من يموت حتف أنفه فاذا مات هذه الميتة احدهم سبّ بها أعقابه وعظم عندهم عقابه . بلاد هذه حالها ، وفيلة تلك اهوالها وجبال في السماء قلالها ، وفلاة يلمع آلها ، وغياض ضيق مجالها ، وأنهار كثيرة اوحالها ، وطريق طويل مطالها ، ثم الهند ورجالها والهنداونية واستعمالها . زحم الأمير السيد ادام الله ظله هذه الأهوال بمنكبه محتسباً نفسه معتمداً نصر الله وعونه فركض اليهم بعون من الله لا يخذل ، ومدد من التوفيق لا يفتر ، وقلب من الأهوال لا يجبن ، وحثٍ على المطلوب لا يقصر ، وسيف على الضريبة لا ينكل . فسهل الله له الصعب ، وكشف به الخطب . ورجع ثانياً من عنانه بالأسارى تنظمهم الأغلال ، والسبايا تنقلهم الجمال ، والفيلة كأنها الجبال ، والأموال ولا الرمال ، فتح ذخره الله عن الملوك السالفة الخالية ، الكفرة الطاغية ، الجبابرة العاتية ، حتى وسمه بناره ، وجعله بعض آثاره . والحمد لله معز الدين وأهله ومذلّ الشرك وحزبه وصلى الله على محمد وآله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخوارزمي

(٣٨٣)

ابو بكر محمد بن العباس الخوارزمي

أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه خوارزم وكان يتسم بالطبري ويعرف بالخوارزمي ويلقب بالطبرخزمي وهو ابن اخت ابن جرير الطبري ، ادعى انه معتزلي وفي الواقع انه شيعي من نوع لم نعرفه وخاله الطبري شيخ السنة وعلم أعلام الأمة ، فارق وطنه في ريعان عمره وهو قوي المعرفة قويم الأدب وكان قوياً في حفظ اللغة والشعر « وكانت قريحته تقصر عن حفظه » وكان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وروايتها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر وشعره في جزالته لا يقل عن نثره وطلاوة نثره آتية من كثرة ما كتب في المقاصد المختلفة . ولم يزل يتقلب في البلاد ويدخل كور العراق والشام ويأخذ عن العلماء ويقتبس من الشعراء وقد لقي سيف الدولة في حلب وخدمه وورد بخارى وصحب ابا علي البلعمي ثم هجاه واتصل بالأمير ابي نصر الميكالي واستكثر من مدحه وداخل ابا الحسن القزويني وابا المنصور البغوي وابا الحسن الحكمي فارتفق بهم وارتفق من الأمير احمد ومدحه ونادم كثير بن احمد ثم قصد سجستان وتمكن من واليها طاهر بن محمد ومدحه واخذ صلته ثم هجاه واوحشه حتى اطال سجنه ثم نهض الى غرشستان وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شاد ثم انه عاود نيسابور وأقام بها الى ان وفق بقصد حضرة الصاحب بن عباد ومدحه فضمه الى ندمائه ووصله بعضد الدولة بشيراز فارتاش وأيسر ولم يخل الصاحب أيضاً من هجائه ثم عاد الى نيسابور واستوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ولما عاد الى شيراز أجري له رسم يصل اليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل من فارس الى خراسان . وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ويغض من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سلطان خراسان فأطلق لسانه فيه حتى أخذ وحبس وقيد وصودر واخذ خطه بمائتي الف درهم ثم اطلق سراحه ورد اليه ما أخذ منه فطاب عيشه وارتفع مقداره الى ان بلي بمساجلة البديع الهمذاني فانخزل انخزالاً شديداً ونفذ قضاء الله فيه .

هذه خلاصة ما ترجم له الثعالبي في اليتيمة وقد عرفه عياناً ، وسيرته كما رأيت سيرة الشعراء المستجدين يمدح على الهوى ويذم على الهوى ويعلو ويسفل بحسب الحال ، وكان الى ذلك لما استقرت به الحال يدرس ويملي من محفوظاته وينظم ويكتب في الأغراض التي تنبعث لها نفسه وشعره شعر أهل الطبقة الثانية من الشعراء ويجيد في المقطعات اذا كان الموضوع مما تأثر به ، ونثره فيه البديع ، وفيه المتكلف لالتزامه السجع . جاء أكثره مصنوعاً وما أجاد الا عندما صدر عن عاطفته . وقد بلغ من الغلو مبلغاً قل ان وصل الى أكثر منه معظم الشعراء والكتاب فضاعت لذلك صنعته في غمار اغراقه ودل على ان فارسيته شديدة وأن إماميته كانت مشوبة بتعصب وعصبية . نقل له الثعالبي طائفة من حكمه ومنها الجيد وأكثرها ظاهر التكلف وأورد له مقطعات من شعره كانت تخرجه عن اتزانه ورويته أحياناً مع أن المفروض فيه غير ذلك .

وخير ما خطت أنامل الخوارزمي كتابه الى جماعة الشيعة بنيسابور وقد كتبه بعاطفته ، وهل التشيع الا عاطفة وعصبية . واذا قصدت الى ان تعرف مقدار الصدق في رسالته البديعة تسقط على ترهات لا يدونها في القرطاس من يأخذ نفسه للحق . معظم الكتاب كالشعراء يتعذر الركون اليهم في تقرير الصدق وخاصة اذا كانوا من الموتورين واصحاب الغايات والدعوات . وكم في الكتب من اختلاق ، والنقاد هم الذين يخرجون من الحديد خبثه ومن الذهب بهرجه .

ان من يقول « ان بني امية الشجرة الملعونة في القرآن وأتباع الطاغوت والشيطان ! » وفي بني العباس : « وما اصف من قوم هم نطف السكارى في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ارحام القيان وماذا يقال في أهل بيت منهم نبغ البغا وفيهم راح التخنث وغدا وبهم عرف اللواط ! » ان يطمس الغرض على بصره ويقول « وقل في بني العباس فانك ستجد بحمد الله تعالى مقالاً ، وجل في عجائبهم فانك ترى ما شئت مجالا يُجبى فيئهم فيفرق على الديلمي والتركي ، ويحمل الى المغربي والفرغاني ، ويموت امام من ائمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته ولا تحصص مقبرته ، ويموت ضراط لهم او لاعب ، او مسخرة او ضارب ، فتحضر جنازته العدول والقضاة ، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة ، ويسلم فيهم من يعرفونه دهريًا او سوفسطائيًا ، ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفيًا ومانويًا ، ويقتلون من عرفوه شيعيًا ، ويسفكون دم من سمى ابنه عليًا ...» ويقول في بني العباس انهم « بولون انباط السواد وزارتهم ، وقلف العجم والطماطم قيادتهم ، ويمنعون آل ابي طالب ميراث امهم وفيء جدهم ، يشتهي العلوي الاكلة فيحرمها ، ويقترح على الأيام الشهوة فلا يطعمها ، وخراج مصر والأهواز ، وصدقات الحرمين والحجاز تصرف الى ابن ابي مريم المدبني والى ابراهيم الموصلي وابن جامع السهمي والى زلزل الضارب وبرصوما الزامر . واقطاع بختيشوع النصراني قوت اهل بلد . وجاري بغا التركي والأفشين الاشروسني كفاية أمة ذات عدد ، والمتوكل زعموا يتسري بائني عشر الف سرية ، والسيد من سادات اهل البيت يتعفف بزنجية اوسندية ، وصفوة مال الخراج مقصور على ارزاق الصفاعنة ، وعلى موائد المخانثة ، وعلى طعمة الكلابين ، ورسوم القرادين وعلى مخارق وعلوية المغني ، وعلى زرزر وعمر بن بانة الملهي ، ويبخلون على الفاطمي بأكلة او شربة ويصارفونه على دانق وحبة ، ويشترون العوادة بالبدر ويجرون لها ما يفي برزق عسكر ....

ان من يقول هذا ويبالغ ويذم الأمويين والعباسيين هذا الذم المقذع ويعمى عن اعمالهم الحسنة التي توازي اضعاف اضعاف ذلك ان صحت كلها مطعون في آرائه ولا يقنع عاقلاً بصحة اقواله ولكن بني العباس عرفوا على الغالب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نفسيته فطردوه عن بلدهم وحرموه عطاياهم فجال في اطراف ملكهم ينزل على ملوك الطوائف يستجديهم ويمدحهم ويهجوهم . فرسالته الى شيعته وشتم الأمويين والعباسيين جاءت من هذا السخف والناقد يرذل من افكارها اكثر ما أورده . وخير الأدب ما صدق قائله ومن دوّن الكذب وقال إنه ادب فهو مغبون الصفقة . أما شعره في هجو من غضب عليه فقد حمل مقابح واقذاعاً لا يليق صدوره عمن يصطنع الوقار والجلال أمثاله .

وبعد فهذا مثال من أدب هذا الأديب ، وهذه صورة من أخلاقه وطعمته ، وهذا وفاؤه لمن آووه وأغنوه ، وهذه مصانعته لجماعته واغواؤه لمن يضلل عقولهم . وقد أثرت له حكم بعضها جميل وأكثر معانيها مبتذلة مأخوذة عمن سبقه . ونعذر مثل الخوارزمي اذا لم يبرز في حكمه ما دام جماع حكمته في حياته ان يغنى وينعم ويغلو ويغرق ولا يعدم صاحب السخف مهما بلغ من خطئه ان يجد مستمعين لقوله وان كان كلامه الهراء .

صوّر من ترجموا للخوارزمي هذه الصورة التي نقلناها عنهم ودلتنا بعض رسائله على منازعه ولولا هذه المخزيات الملموسة في كتابته لكان بما اتقنه من علوم الآداب آية في فنه ومع انه جرى طلقاً مع عاطفته فقد كانت رسائله مما يتعلم منه وقليل في حملة الأقلام من جودوا تجويده .

تأمل هذه الظاهرة في أخلاق الخوارزمي تره على كثرة ما جنى من مال واعتقد من ضياع ممن يصعب عليهم أداء مال السلطان فما كتب الى صاحب ديوان الحضرة أنه ورد علية من عمال الخراج من لا أطربه بجرمة ولا أتناوله بطرف ذريعة او وسيلة ، وكأني به وقد حشرني في جملة العامة ، وادخلني في غمار سائر الرعية ، ووقفني على جسر قدّامه الخسران ، وخلفه الهوان ، وفجعني بدريهمات جُمعت بتقحم المهالك واختراق المسالك والممالك ، ودنانير قطعت القفار ، وخاضت البحار ، وناطحت الحوادث والأقدار ، فان بذلتها أبرزت وفراً طالما كان مخزونا ، وان منعتها ابتذلت عرضاً لم يزل مصونا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكتب الى صاحب ديوان الخراج بالحضرة : وان درهماً يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان قبيح الأحدوثة في البلدان ، ولئن كان يعمر به بيت المال ، فانه يخرب بيت الجمال . ولئن كان يزيد به عدد الدراهم ، انه لينقص من عدد المكارم ، ولئن كان يسمى في العامة جباية ، انه يسمى في الخاصة خزاية ، وللبس اكفان الموتى ، وسرق أدوية المرضى ، وقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر النبي عليه السلام ، احسن في الاحدوثة وابعد من العار والنقيصة من الزام مثلي خراجا ، وسومه غرامة واستخراجا » .

وكتب في حالة اخرى الى صاحب ديوان الحضرة : « ولقد خصني من بين الأزمان زمن لئيم ، ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم ، حيث صرت ألزم خراجاً » الى ان قال : « فان رأى ان لا يفجع خراسان بلسانها ، ولا يخليها من سيفها وسنانها فعل » وكتب الى بعض حكام الرساتيق « وما ظن سيدي بضيعة الزمتني الجزية بعد ان كنت ألزمها الصغير والكبير ، واستأديها الرعية والأمير ، واخرجتني من عز السلاطين الى ذل الدهاقين ، وجمعت عليّ فتون الأغنياء وغم المساكين ، وشغلني صداعها عن أشغال الدنيا والدين ، يستغل الناس الغلة ، وأنا استغل القلة والذلة . ويزرعون في الأرض حباً ، فيحصدون حبوباً ، وانا ازرع في قلبي كرباً واحصد كروبا ، وقد صرت من اجلها اخدم قوماً كنت استخدمهم ، وأسلم على اناس كنت اذا كلموني لا أكلمهم ، ويحجبني من لو حضر بابي من قبل حجبته ، ويعرض عني من لو سألني فيما مضى ما اجبته ..

ومن كتاب له الى صاحب ديوان الحضرة : ولقد خصني من بين الأزمان زمن لئيم ، ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم ، حيث صرت الزم خراجاً التزم بنو المدبر أضعافه للبحتري ، واضايق في ضيعة وهب أمثالها محمد بن الهيثم الغنوي لأبي تمام الطائي حيث قال البحتري :

ولم لا أغالي بالضياع وقد دنا عليّ مداها واستقام اعوجاجها
اذا كان لي تزينها واغتلالها وكان عليكم عشرها وخراجها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال ابو تمام الطائي :

فدع ذكر الضياع فبي شماس اذا ذكرت وبي عنهـا نفار

وما لي ضيعة غير المطايا وشعر لا يبـاع ولا يعار

للخوارزمي مجازفات تعجب وان حادت عن المعقول مثل قوله لأحد الحجاب لما نكبه ابن عباد : وأنت ايدك الله تعلم انك كنت من الذل في مكان يتخطاك فيه الناظر ، ويدوسك الخف والحافر ، لا يشرفك نسب ، ولا يرفعك أدب ، ولا يرجوك صديقك ولا يخافك عدوك ، عن يمينك الخمول ، وعن يسارك الذبول ، وبينهما الفقر الذي لو قسم على الأغنياء لصاروا فقراء ، والضعف الذي لو فرق على الأقوياء لعادوا ضعفاء ، تصبح في قلّ ، وتمسي في ذل ، وتروح الى انثى وتغدو الى طفل ، فأنصفك الدهر الظالم ، وانتبه لك البخت النائم ، واراد الله تعالى ان يرفع من حكمتك ، ويقوّم من قنبور حدبتك الخ . وهو كلام فاض باللؤم والشماتة .

كتب الى الصاحب يعرض نفسه فقال « فان اذن الوزير في ورود عسكره المحفوف بجناح النصرة ، المكنوف بجوانب الدولة والكرة ، رأى مني بحمد الله تعالى فارساً ملء العين ، كما سمع مني عالماً ملء الأذن ، فيعلم حينئذ ان اقباله خرج له تلميذاً انتظم فيه فروسية اللسان ، وفروسية السيف والسنان ، ويكر في معركة الطعان ، كما يكر في معركة البيان ، ويثبت اسمه في جريدة العلماء والفرسان » وهذا كأكثر ما أثر عنه يفيض منه البأو وتتدفق الدعوى . ومن هذا البحر قوله : « وقد علم الأمير ان والدي رحمه الله تعالى خلف علي ما لو خلفه على اهل بلد لكفاهم ، ولو فرقه على فقراء الدنيا لأغناهم . فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً ، وتخاتلني سراً ، حتى خرجت منها أعرى من حية ، بعد ما كنت أكسى من بصلة ، وافقر من الحجر ، بعد ما كنت أغنى من الكعبة وأعطل من المحرم . وفي هذا أيضاً من الكذب ما لا يقبله طفل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في رسائل الخوارزمي صورة من أخلاقه يصانع من يتوقع نفعاً منه وينحي على من يستضعفه ولا يخاف شره ، تتمثل مصانعة الكبراء من أقواله وتحكم عليه بها انه كان لوناً عجيباً من الوان عصره . اقتدر هو وأمثاله من الكتاب والشعراء ان يصوغوا هذا النفاق السمج نثراً ونظماً على ما لم يصل اليه اهل القرون الثلاثة الأولى . ورسالته الى ابي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر زعم تنبئك بانه اراد ان يعبث بمن لا يحب ، فغالى غلواً لم يبلغه أحد قبل عصره حتى ليشمئز تاليه ويضحك مما احتفل له وكد قريحته . وفي هذه الرسالة حاول ابو بكر الخوارزمي ان ينسج على منوال الجاحظ في رسالته لمحمد بن عبد الوهاب فكبا وما أتى الا بالاقذاع ، وما خرج عن السب والشتم المبتذل .

وهو الذي يقول : والشعر ينقلب مع الجو حيث كان ، ويرتاد المعروف والاحسان ، وانما هو مال سارب ، بل سيل زاعب ، اذا سد عليه طريقه خرقه في الأرض خرقاً ، وجعله لنفسه طريقاً بل طرقاً .

قدامة بن جعفر

ابو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زرباً

(٣٣٧)

سكن ابو جعفر البصرة ثم انتقل الى بغداد ، وكان من اهل الأدب والكتابة وله مصنفات ، وتولى بعض الدواوين ، وولد ابنه قدامة في بغداد على الأرجح ، في أول الربع الأخير من القرن الثالث ، ونشأ على النصرانية دين أبيه وتثقف ثقافة اسلامية ، فأحكم اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة والرياضيات وغلب عليه الأدب واللغة . ثم أسلم على يد الخليفة المكتفي وتولى في سنة ٢٩٧ بعض الأعمال في دواوين الأموال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسكتت الأخبار عن أصل ابي جعفر والغالب انه فارسي نزل ابوه او جده العراق ، وتمازج بالمسلمين وتعلم من علومهم ما يستعين به على الكتابة والتصنيف . أما ابنه فلقف علوم الملة الاسلامية شأن كثير من أذكياء العصور ومنهم ابن المقفع وعلي بن رَبَن ثم امتلوا ملة الاسلام عن علم وثقافة .

يقول المسعودي ان ابا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجز الألفاظ ، مقرباً للمعاني ، واذا أردت علم ذلك فانظر الى كتابه في الأخبار المعروف بكتاب زهر الربيع ، وأشرف على كتابه المترْجَم بكتاب الخراج ، فانك تشاهد بهما حقيقة ما ذكرنا ، وصدق ما وصفنا » وقال ياقوت : ان قدامة ادرك زمن ثعلب والمبرد وابي سعيد السكري وابن قتيبة وطبقتهم ، والأدب يومئذ طري ، فقرأ واجتهد وبرع في صناعتي البلاغة والحساب ، ثم قرأ صدراً صالحاً من المنطق ، وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، واشتهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر . وذكر له اسماء كتب كثيرة ألفها . وقال الخطيب البغدادي : هو من مشايخ الكتاب وعلمائهم ، وكان وافر الأدب ، حسن المعرفة ، وله مصنفات في الكتابة وغيرها . وضرب الحريري المثل في مقدمة مقاماته ببلاغة قدامة فقال : وان المتصدي بعده (اي بعد البديع الهمذاني) لانشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يغترف الا من فضالته .

شهادات كلها متفقة على تفرد ابي الفرج ببلاغته ، وشغوف طبعه وغزارة علمه ، عرف بذلك بين الخواص واعترف له بمزاياه النادرة جهابذة النقد ، وأئمة البلاغة وان لم يشتهر كثيراً بين العوام ، وهؤلاء لا تستفيض شهرة احد عندهم ان لم يقرب في تآليفه ودروسه من افكارهم وتصوراتهم .

وأهمُّ ما لم يفقد من كتبه كتابه « نقد الشعر » دلَّ فيه على نبوغ واحاطة ، ولو لم يكن من جلال الآداب بالمقام الأعلى ما ناقشه في بعض آرائه في البديع أئمة الأدب بعده امثال المرزباني في الموشح ، والعسكري في الصناعتين وابن سنان في سر البلاغة ، والآمدي في الموازنة بين ابي تمام والبحتري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما الكتاب الذي سموه « نقد النثر » ونسبوه اليه فهو مما لم يكتبه ، ظاهر انهم نحلوه اياه . ومن يتأمل عباراته يجدها اشبه بعبارات اهل القرن السادس والسابع ، وبلاغته موضع نظر . فقد رأيناه في مقدمة « نقد الشعر » يدخل على موضوعه مباشرة وفي مقدمة « نقد النثر » اسجاع تنادي بأن الكتابين لكاتبين متخالفين في الطريقة والاداء .

وكذلك نشك في نسبة كتاب جواهر الألفاظ الذي عزي اليه . وفي جريدة تآليفه ذكر الكتاب الألفاظ من تأليفه ، وبضعة سطور من مقدمته تحمل الناقد على إلحاق كتاب جواهر الألفاظ بكتاب نقد النثر . قال في كتاب الجواهر وهو « كتاب يشتمل على الفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة ، وابواب موضونة بحروف مسجعة مكنونة ، متقاربة الأوزان والمباني ، متناسبة الوجوه والمعاني ، تونق ابصار الناظرين ، وتروق بصائر المتوسمين ، وتتسع بها مذاهب الخطاب ، وينفسح معها بلاغة الكتاب ، لأن مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح ، كناظم الجوهر المرصع ، ومركب العقد الموشع ، يعدُّ اكثر اصنافه ، ليسهل عليه اتقان رصفه وائتلافه » .

اما كتابه « الخراج وصنعة الكتابة » وهو مما صنفه بعد نحو من عشرين سنة من اشتغاله في دواوين الاموال فهو نمط آخر من كتابته ليس فيه أثر من آثار السجع ويقل فيه الازدواج . مثال من كتابته في الخراج قوله في ذكر ثغور الاسلام والأمم والاجيال المطيفة : الامم والاجيال المخالفة للاسلام مكتنفة له من جميع أطرافه وغايات أعماله منهم المتقارب من دار مملكته ، ومنهم المتباعد عنها . وكانت ملوك الطوائف الذين يملكهم ذو القرنين يؤدون الاتاوة الى ملك الروم خمس مائة واحدى عشرة سنة الى أن جمع أردشير بن بابك المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة فمنع حينئذ الاتاوة التي كانت الفرس تؤديها الى الروم بعد مشقة فينبغي ان لا يكون المسلمون لصنوف اعدائهم أشد حذراً منهم للروم ، وقد جاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلته والله الموفق للمصلحة بقدرته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونتجوز فننقل جملة اخرى من كلامه من هذا الكتاب أيضاً وهو قوله « ثم نتبع ذلك بوصف احد ايام الغزوات ليكون علم ذلك محصلاً محفوظاً فنقول ان اجهدها مما يعرفه اهل الخبرة من الثغريين ان تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة ايام تخلو من ايار بعد ان يكون الناس قد اربعوا دوابهم وحسنت احوال خيولهم فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية أيار وعشرة من حزيران فانهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكناً وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوماً وهي بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر ، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً فاما الشواتي فاني رأيتهم جميعاً يقولون : ان كان لا بد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره وان يكون ذلك في آخر شباط فيقيم الغزاة الى ايام تمضي من آذار فانهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواب ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون » .

هذا نمط قدامة في الانشاء وليس فيه أثر من آثار التكلف غير الصناعة وجمال الأداء ولقائل ان يقول ولكن قدامة هنا يقرر حقائق وهناك يكتب أدباً فنقول ان من يدقق يدرك ادراكاً لا تعتوره ريبة أن قائل هذا الكلام لا يرضى لنفسه ذاك التكلف والتعسف .

ان ما أصاب الخزائن من النكبات قضت بان يضيع القسم الأعظم مما كتبه المؤلفون ، وطول الزمن وانتشار الجهل كانا مدعاة الى أن تنسب بعض المصنفات الى غير مصنفيها ولعل الأمة العربية اذا طبعت كل ما في الشرق والغرب من المخطوطات تصل الى كشف حقائق تتعذر اليوم الاحاطة بها .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net